

## كلمة التحرير

### مبدأ التكامل المعرفي في الفكر التربوي والتراث التربوي

#### هيئة التحرير

ما هو التراث؟ من الناحية الإجرائية التراث نوعان؛ الأول: هو مادة مكتوبة في كتب أُلِّفت في الماضي، وهذه المادة المكتوبة هي أفكار معيارية، وممارسات وصفية قامت بها أجيال في الماضي بناءً على هذه الأفكار؛ والثاني: هي أفكار في عقول وقلوب أبناء الحاضر، وممارسات يقومون بها بالاعتماد على تلك الأفكار.<sup>1</sup> وفي كلتا الحالتين فإن التراث يُعنى بعالم الأفكار. وعندما يتحدث التراث عن شخص معين بصفته مؤلفاً لمادة تراثية، سنجد أن الجزء الأكثر أهمية في الحديث عن ذلك الشخص هو تحديد العلم الذي اكتسبه من أساتذته ونقله إلى تلاميذه. وعندما يتحدث التراث عن مؤسسات بنيت للتعليم وبنيت لها الأوقاف للإنفاق عليها وضمان استمرارها، أو نتحدث عن أساليب للتعليم والتأديب، والأدوات التي تستعمل في هذه الأساليب، فإن قيمة الأشياء تكمن في الأفكار التي تعبر عنها.

التراث التربوي الإسلامي الذي بين أيدينا اليوم كان فكراً تربوياً عندما كتبه مؤلفه لزمانه وأبناء جيله، وكانت مرجعية ذلك الفكر يومها هي نصوص معيارية من القرآن الكريم والسنة النبوية، انطلق منها المؤلف واجتهد في تنزيلها على زمانه ومكانه وحالة مجتمعه. ولذلك فإن تقديرنا لقيمة ذلك الفكر الذي أصبح بين أيدينا اليوم تراثاً، إنما يتم في ضوء مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية، وليس من المستنكر أن يكون فهمنا لمقاصد القرآن والسنة اليوم مختلفاً عن فهم السابقين، ومن المؤكد أن وقائع حياتنا المعاصرة اليوم ومتطلباتها، مختلفة عما كانت عليه في زمانهم، وأن من غير الممكن أن نتجاهل الخبرة

---

<sup>1</sup> من المفيد التفكير في إجراء بحوث علمية تستهدف البحث في الممارسات الاجتماعية التي تعود في أصولها إلى أفكار وخبرات متوارثة واكتشاف أصولها في التراث. وقد طورت بعض الاتجاهات البحثية الحديثة دراسات حول ما يسمى "رؤية العالم" لدى بعض المجتمعات أو بعض فئات المجتمع، حيث تنتقل الأفكار المتوارثة والممارسات المعتمدة عليها من جيل إلى آخر عن وعي أو دون وعي.

الإنسانية المكتسبة في زماننا اليوم. ومن ثم فإننا أمام مهمة شبيهة بالمهمة التي كان على أعلام التراث التربوي القيام بها؛ أي إنتاج فكر تربوي نحاول فيه تحقيق مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية، مستفيدين من تراث الأمة الماضي، ومن الخبرة البشرية المعاصرة، ومتوجهين للاستجابة لمتطلبات الحاضر الذي نعيشه، وطموحات المستقبل الذي ننشده.

والعلم والتعليم والتربية منظومة مركزية مسؤولة عن تشكيل شخصية الإنسان الفرد في كل مجتمع، وفي الوقت نفسه هي منظومة مركزية في قدرة الأمم على امتلاك القوة بكل أنواعها ومجالاتها: الاقتصادية، والعسكرية، والأخلاقية، إلخ، وتتكامل عناصر هذه المنظومة لتؤدي وظيفتها في المؤسسات التي تتولى هذه المهمة؛ بما في ذلك الأسرة، والمدرسة، والإعلام، والمؤسسات السياسية والاجتماعية الأخرى مثل الأحزاب والنوادي والجمعيات، وجماعات الرفاق، وغيرها.

والأمة العربية والإسلامية وهي تحاول بناء مشروع نضويّ شامل، يُحقق لها موقع الشهود الحضاري في العالم المعاصر، سوف يبقى سعيها في هذا المجال قاصراً ما لم تدرك أهمية التعليم في برامج ومؤسساته ومادته، وما لم تدرك كذلك أهمية البحث العلمي، في مجال التربية والتعليم، إدارةً وتمويلاً وتوجيهاً.

ونحن نقدر أنّ موضوع التراث التربوي الإسلامي هو أحد مواضيع التعليم والبحث العلمي التي تحتاج إلى العناية والاهتمام، لا ليكون هذا الموضوع غايةً في حدّ ذاته، وإنما ليكون وسيلةً لبناء فكرٍ تربوي إسلامي معاصر، يأخذ من التراث ما يلزم أخذه، لكنه يستلهم مقاصد الإسلام في نصوصه الأساسية في القرآن الكريم والسنة النبوية، ويستأنس بفهم علماء الأمة لتلك المقاصد، كما جاء هذا الفهم في مادة التراث، ثم يتعامل مع الخبرة الإنسانية المعاصرة، بتحليلٍ نقديٍّ؛ سعياً وراء ما قد يتوفر فيها من الحكمة، وتطلّعاً إلى بناء نماذج تتّصف بالأصالة والإبداع، وتقود إلى تطوير الواقع واستشراف المستقبل.

إنّ كتب التراث في الموضوعات المختلفة كتبها مؤلفوها من أجل أن تقرأ، وتكون مادة للتعليم في مرحلة من مراحل عمر المتعلمين. وبهذا المعنى، يمكن القول إن التراث العربي الإسلامي المكتوب في معناه العام هو تراث تربوي تعليمي. وثمّة معنى آخر للتراث التربوي الإسلامي، وهو ذلك التراث الذي يتضمن موضوعات عن التربية والتعليم بالمعنى

الخاص؛ أي الكتب التي تحتوي مادة عن واحد أو أكثر من الموضوعات الآتية: العلم، والمعلم، والمتعلم، وطرق التعليم، ومناهج التعليم، ومؤسسات التعليم، وتمويل التعليم، وإجازات التعليم، وغير ذلك مما له صلة بالتعلم والتعليم، سواءً كان منهج عرض هذه المادة منهجاً فقهياً، أو فلسفياً، أو تاريخياً، أو أدبياً، أو صوفياً، إلخ.

وسوف نجد من هذه الكتب ما يحمل عنواناً صريحاً في الدلالة على موضوعه، مثل كتاب "آداب المعلمين" لابن سحنون، وكتاب "الرسالة الفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" للقاسبي، وكتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم للزنجي، وأمثاله. وثمة كتبٌ أخرى في التراث الإسلامي تحمل عناوين عن التعليم، لكن موضوعاتها لا تتصل بالمعنى الخاص للتعليم والتربية الذي أشرنا إليه أعلاه؛ ومن ذلك مثلاً كتاب: "المنهج القويم بشرح مسائل التعليم" لابن حجر الهيتمي، فهو كتاب في الفقه الشافعي، يتكون من متن الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بافضل الحضرمي المعروف "بلحاج الحضرمي" (ت ٩١٨هـ)، وشرح ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ). وفي الكتاب مقدمة قصيرة لا تتجاوز صفحة واحدة ثم يأتي أبواب الفقه بدءاً من باب الطهارة، ثم الصلاة، والجنائز، والزكاة، والصيام، والاعتكاف، والحج والعمرة، والبيع، والإقرار، والوقف، والفرائض، والموازين. ولذلك ليس في الكتاب شيء من موضوعات التربية والتعليم بالمعنى الخاص. ومثله كذلك "كتاب تعليم الصبيان" لعبد الرحمن السالمي، هو كذلك كتاب في الفقه الإباضي ليس غير. وما قد يشفع لمؤلفي مثل هذه الكتب هو أن ما كتبوه فيها من أحكام الفقه هو تحديد للموضوعات التي يجب تعليمها.

وفي المقابل سنجد موضوعات فيها قدر كبير من التفصيل عن مسائل التعليم بالمعنى الخاص، ولكن عناوين مثل هذه الكتب لا توحى بذلك. فقد وجدنا مثلاً أن كتاب "المقدمة" لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) يتضمن مادة غنية بلغ حجمها ثلث حجم مادة الكتاب، وتضمنت حديثاً تفصيلياً عن مكانة المعلم، وصفات المعلمين، وتصنيف العلوم، وطرق التعليم. كما وجدنا أن كتاب "الإعلام بمناقب الإسلام" لأبي الحسن العامري (ت ٣٨١هـ) يتضمن فصولاً نفيسة احتلت كذلك ما يزيد عن ثلث مادة الكتاب، وعرض فيه للغرض من العلم، وتصنيف العلوم ومراتبها وأهميتها كل منها، وضرورة التخصص في العلم، وصفات المعلمين، والأثر التربوي للعبادات الإسلامية. وكتاب

"مفتاح السعادة ومصباح السيادة" لطاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) هو في الأساس محاولة جديدة في مجال تصنيف العلوم، وبيان التنوع المعرفي للتراث الإسلامي. وقد تحدث فيه عن العلوم وأقسامها وفروعها، فذكر كيف تفرعت العلوم، وعلاقة كل علم بغيره من العلوم، وقسّم كتابه إلى شعب وفروع. وقد بلغ عدد العلوم في إحصائه نحو ٣٠٠ علم قسمها إلى ستة أبواب. وعندما يذكر العلم يعرّفه ويبين حدوده، ويبحث في تاريخه بحثاً نقدياً، ثم يشير إلى أشهر المؤلفات الموجودة في هذا العلم.

وقد يكون من المناسب أن يأتي الحديث عن المبادئ اللازمة في التعامل مع التراث التربوي الإسلامي ضمن مبدأ أساسي عريض، يكون أساساً للمبادئ الفرعية التفصيلية. ونجتهد في أن يكون هذا المبدأ الكلي العريض في التعامل مع التراث التربوي الإسلامي هو مبدأ التكامل المعرفي الذي يُعد منهجية محددة في قراءة التراث التربوي الإسلامي والتعامل معه، إحياءً وتحقيقاً ونشراً وتوظيفاً. ومبدأ التكامل المعرفي في هذا السياق يعني الرؤية الكلية لموضوع الدراسة في مادته ومنهجه وتاريخه، من أجل أن يؤخذ بالحسبان التنوع والتعدد والتطور في مادة التعليم، ومدخلها المنهجية، وتغيرها مع الزمن. كما يتضمن هذا المبدأ النظر إلى الجوانب الإيجابية والسلبية عند تقويم التعليم كما يكشف عنه التراث التربوي الإسلامي.

وإعمال مبدأ التكامل في قراءة التراث في مراحل الزمنية المتتابعة، يقتضي ملاحظة المدى الزمني الذي إنجزت فيه مادة التراث عبر أكثر من عشرة قرون،<sup>٢</sup> وكانت أنواع الإنجاز فيه مختلفةً من عصر إلى آخر؛ فحالة التعليم التي تحدث عنها التراث في عهد التابعين وتابعيهم مثلاً لم تبق كما كانت عليه أيام الصحابة، وتراث العصر الأموي يعرض لنا ممارسات جديدة لم تعرف من قبل، وكذلك الأمر في العصور اللاحقة. هذا التفاوت في حالة التعليم ظهر في درجة الاعتماد على التدوين والكتابة، وفي اختلاف نوعية المعلمين، وأماكن التعليم، وتمويل التعليم، ومؤسسات التعليم، وآداب التعليم، ومناهج التعليم، والمدارس أو الاتجاهات الفقهية والفكرية التي مارست التعليم، وهكذا. وقد توزعت مادة التراث التربوي الإسلامي كتباً متنوعة تنتسب إلى علوم مختلفة، ولذلك

<sup>٢</sup> على اعتبار أن التراث الإسلامي هو ما كتب قبل الصدمة الحضارية التي واجهتها الأمة الإسلامية عند بدء تفاعلها مع الغرب الاستعماري منذ مطلع القرن التاسع عشر.

تقتضي الرؤية التكاملية في قراءة التراث وفهمه وتقويمه أن تشمل ما كتب على التعليم في كتب هذه العلوم، وقد وثق التراث التربوي الإسلامي كل ذلك. فحتى نرسم خريطة مناسبة لما يكشف عنه التراث من حالة التعليم ينبغي أن يتكامل في رؤيتنا للتراث كل هذا الاختلاف والتنوع.

وإعمال مبدأ التكامل عند دراسة التراث التربوي الإسلامي والسعي للاستفادة منه، لا بد أن يأخذ بالحسبان أن المعرفة البشرية معرفة نامية ومتجددة لا تعرف الثبات. ويقع الخلط في بعض الأحيان في فهم هذا المبدأ ومحاولة توظيفه، عندما ينتقل الحديث عن الموضوع إلى قضية الثواب والمنتغيرات في المرجعية الدينية، وتظهر بعض المواقف التي تغالي في توسيع دائرة الثواب وتفرد في الاستفادة من دائرة المباحات. ويمكن القول - في سياق الحديث عن التعليم والتربية - إننا في مجال واسع من المباحات التي تتصل بالتجديد في فهم نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي، حتى يعود الدين جديداً كما بدأ. فالتطور في العلوم الطبيعية والإنسانية يمكن الإنسان من تطوير أساليب فهمه للوقائع والطبائع، وفهم النصوص الدينية لتستوعب فهم الوقائع والطبائع، ومن ثم التجديد في فهم تلك النصوص، ويكون هذا الفهم المستوعب، والتجديد المتواصل شاهدين على صلاحية النصوص الدينية لكل زمان ومكان.

والتعليم قاطرة التغيير في حالة المجتمع في سائر جوانبه، ولذلك فإن من المتوقع أن يحصل النمو والتطور في المعرفة التربوية بصورة تجعل هذه المعرفة المتجددة متاحة لإصلاح النظم والممارسات السائدة في المجتمع في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن أجل الحكم على التراث التربوي الإسلامي والمهمة التي قام بها في التاريخ الإسلامي لا بد من استحضار مقاصد الإسلام من التعليم. ولا خلاف على أن المقصد الأساس من التعليم هو إعداد الإنسان الصالح المصلح الذي يتحقق بالتقوى، ويؤدي واجب الاستخلاف في الأرض في الدنيا، لينتهي به المطاف إلى سعادة الآخرة. ورسم لنا القرآن الكريم والسنة النبوية سبل تحقيق هذا الإعداد، وقد تحققت هذه المقاصد في الصحابة الذي تخرجوا في مدرسة التعليم النبوية، كما تحققت في عدد كبير من التابعين الذي تخرجوا في مدرسة التعليم، التي كان الصحابة فيها هم المعلمين. وبالطريقة نفسها ولكن بدرجة أقل تخرج تابعو التابعين. لكن التراث التربوي الإسلامي كشف عن حالات من

الخلل في عناصر الشخصية الإسلامية وتمثلت في انحراف أفراد وفئات من المجتمع الإسلامي عن صورة الشخصية الإسلامية التي كانت مقاصد الإسلام تنشدها تحقيقها، مما قد يعني أن التعليم المناسب لم يتوفر في مثل هذه الحالات، أو أن بعض التعليم صاحبه اختلافات وانحرافات في مادة التعليم وممارسات المعلمين.

إن تحليل مادة التراث التربوي الإسلامي سوف يكشف عن تكامل الشخصية الإنسانية التي يتحدث عنها التراث، والفرد في شخصيته المنفردة جسم وعقل وروح، ولكل منها متطلباته التربوية والتعليمية، وتعليم الفرد كان يتناول هذه الأبعاد من شخصية الفرد، ولا يقتصر على بعد دون آخر. كذلك فإن مادة التراث تشتمل على التربية الفردية في هذه الجوانب الثلاثة والتربية الاجتماعية التي تتناول علاقات المسلم الفرد بأسرته وذوي قرابته، وموقعه في خدمة المجتمع وحمایته وتطويره، عن طريق الإنجاز المتميز في أداء الأمانة التي أوتمن عليها، والمهنة التي تخصص فيها، وبمجهوده التي يسهم فيها في تحقيق رسالة الأمة الحضارية وموقعها في نظام العالم.

لكن الحكم على قيمة التراث التربوي الإسلامي في الواقع المعاصر سيكون أصعب من الحكم على أثره في تاريخ المجتمع الإسلامي؛ إذ إن ما نبحت عنه من مبادئ وقيم في هذا التراث سوف تُختبر ليس بدلالة أثرها السابق وحسب، وإنما بدلالة قدرتها على حل مشكلات المجتمع المسلم المعاصر من جهة، وصلاحياتها كذلك في أن تكون إسهاماً حقيقياً في حل مشكلات المجتمعات الأخرى، فإن المثاقفة بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى لا بد أن تكون حركة في الاتجاهين، فهي أخذ وعطاء، والجديد في المجتمع المعاصر أصبح ينتقل في كل الاتجاهات في اللحظة التي يتجدد فيها، فعلى النخب التربوية الإسلامية أن تكون مستعدة أن تنطلق من الوحي الإلهي والهدي النبوي، وتستلهم مبادئ التراث وقيمته، لتقدم خبرات تعليمية في المجتمع الإسلامي، تكون قابلة للتعميم على المجتمعات الأخرى.